التغيير بين الواقع والطريقة الشرعية قضية مصيرية

بعث الله رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وأيده بالحجة الدامغة في هذا القرآن، ليخرج الناس به من الظلمات إلى النور، فلم تكن دعوة النبي ﷺ تقتصر فقط على توحيد الإله المعبود، ولم يكن أول موحد في مكة، ولم يتعامل أهلها معه كتعاملهم مع غيره من الموحدين فيها كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل، فلم يقم بينهم وبين غيره أي نوع من الصراع، وإنما كان صراعهم مع النبي ﷺ لما يحمله من دعوة تملك نظاما لتغيير الواقع تغييرا انقلابيا شاملا يضع للإنسان بوصفه إنساناً طريقة جديدة للتفكير مبنية على العقل ومسلماته، ويغير مفاهيمه عن الحياة والكون والإنسان ويضع له مقاييس جديدة تغير قناعاته وتصبح كل هذه الأفكار وما تفرع عنها هي أساس أعماله في هذه الحياة، وهذا ما ظهر في دعوته ﷺ في مكة؛ فكما قلنا لم تكن تقتصر على الدعوة لتوحيد المعبود فقط وإنما الالتزام الكامل بجميع أوامره ونواهيه، فنبذ الإسلام عادات العرب في مكة وسفه أحلامهم وسب آلهتهم أيما مسبة ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾ ونهاهم عن تطفيف الكيل والميزان ﴿**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، ونهاهم أيضا عن وأد البنات وأمرهم بمكارم الأخلاق ﴿**وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ**﴾، ودعاهم لتغيير مفاهيمهم وربطها بالإسلام وعقيدته، وعاب كل أنظمتهم وكيفية تنظيم علاقاتهم في الحياة، ودعاهم لتغييرها لتكون جميعها على أساس الإسلام وأحكامه المنبثقة عن عقيدته، الأمر الذي لم يقبله السادة والذي لم يأت به موحد آخر ممن عرفوهم، ولهذا حاربوا رسول الله ﷺ وهددوه تارة وساوموه تارة أخرى، لا ليترك دينه ولكن فقط ليتنازل ويتخلى عن عقيدته السياسية، الأمر الذي لم يكن مقبولا من النبي ﷺ ولا مجال للتفكير فيه بل كان رده واضحا صريحا على عمه أبي طالب خلال وساطته بينهم وبينه أن قال له: «**يا عَمُّ، واللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ في يَمِينِي، والقَمَرَ في يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ، ما تَرَكْتُهُ**»، هكذا كان خطابه ﷺ متميزا بالوضوح والصراحة والمواجهة دون مواربة أو خنوع أو خضوع لأعراف الكفر ومشاعره وتقاليده، نعم فقط اتخذ رسول الله ﷺ من حمل دعوة الإسلام وتمام بلاغها للناس قضية مصيرية، وجعل منها محورا لحياته، وهكذا يجب أن تكون لدى كل حامل لدعوة الإسلام عامل لتطبيقه من جديد.

واصل رسول ﷺ حمله للإسلام بطريقة معينة لها غايتان عظيمتان؛ حمل دعوة الإسلام للناس، وبدء الحياة الإسلامية بإيجاد دار إسلام وإقامة دولة يطبق فيها الإسلام، حيث نزل الإسلام بأحكام عملية تعالج مشكلات الناس وتنظم علاقاتهم، ولهذا وجب وجود دولة تطبق هذه الأحكام وترعى بها الناس، وحتى توجد هذه الدولة وتستمر هذه الدعوة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور قام رسول الله ﷺ بأعمال معينة هي طريقة شرعية ثابتة لكيفية تطبيق الإسلام في دولة تحمله للعالم بالدعوة والجهاد، فبدأ ﷺ بدعوة الناس وتثقيفهم بثقافة الإسلام تثقيفا يبني شخصياتهم وينتج منهم شخصيات إسلامية، فلم يكن يلتقي بهم في دار الأرقم ليحفظوا متوناً في العقيدة ولا ليحفظوا القرآن وتفسيره، وإنما ليبني منهم رجالا تقوم على أكتافهم دولة الإسلام؛ كتلة مؤمنة كانت قريش تسمي أفرادها حزب محمد، أي هؤلاء الذين يصدقون النبي ﷺ ويرون رأيه

ويقولون بقوله، ومن هؤلاء رأينا أبا بكر الصديق رضي الله عنه وكيف كان يضع نفسه وماله ووقته وجهده في سبيل هذه الدعوة، ولما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه، وسعت قريش بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس؟ قال: أوقال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أوتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك؛ أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة. فوجئوا بيقين ثابت وهم الذين كانوا يطمعون في زعزعة إيمانه... وهذا عبد الله بن مسعود كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة ولم يكن ذا قوة يدفع بها عن نفسه ولا عشيرة تمنع عنه الأذى، يقول ابن إسحاق: اجتمع يوما أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا؛ قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإن الله سيمنعني، قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، رافعا بها صوته: الرحمن علم القرآن، قال: ثم استقبلها يقرؤها. قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ. ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك؛ فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا؛ قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون... وهذا مصعب بن عمير، مصعب الخير، الفتى المنعم الذي ترك كل متاع الدنيا وزخرفها وزينتها ومالها وثراءها وترفها لأجل هذا الدين وهذه الدعوة، أرسله رسول الله ﷺ إلى المدينة مع من آمن من أهلها ففتح الله على يديه وعاد بسادتها مبايعين مناصرين...

هؤلاء الصحابة كانوا تجسيدا حيا لمن تم بناؤهم على أفكار الإسلام وعقيدته حتى تجسد فيهم وصارت غايتهم أن يتجسد في المجتمع، نعم فهم الكتلة التي أنشأها النبي ﷺ وتفاعل بها مع المجتمع هادماً أفكار الكفر فيه عاملا على بناء أفكار الإسلام، وثبتوا على ذلك والرسول فيهم وتحملوا كل الأذى في هذا السبيل، فمنهم ياسر وسمية وعمار وبلال وغيرهم ممن عذبوا وأوذوا في سبيل الله ودينه ودعوته، يقول خباب رضي الله عنه: شَكَوْنَا إلى رَسولِ اللهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا له: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟ قالَ: «**كانَ الرَّجُلُ فِيمَن قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فِيهِ، فيُجَاءُ بالمِنْشَارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُشَقُّ باثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، ويُمْشَطُ بأَمْشَاطِ الحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ مِن عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمْرَ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلَّا اللهَ، أَوِ الذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»، فعذبوا وحوصروا ومنعوا من الناس في محاولات لمنع بلوغ هذه الدعوة مرادها.

بالتزامن مع هذا كان رسول الله ﷺ يطوف بيوت العرب يستنصر أهل القوة يبحث عمن ينصره ليبلغ رسالة الله، مستجيبا لأمره جل وعلا، فيعرض على هؤلاء وأولئك، فمن يشترط ومن لا يجيب ومن يغري به الغلمان والسفهاء، إلى غير ذلك، حتى هيأ الله له ذلك الحي من الأوس والخزرج فآمنوا به ونصروه ونصروا دعوته، فكان إرسال مصعب الخير الذي فتح الله به المدينة فاستقبلت رسول الله ﷺ وتسلم الحكم فيها ليطبق الإسلام في طريقة ثابتة لكيفية إقامة دولة الإسلام ببيان شاف من صاحب الدعوة ﷺ واجب الاتباع.

أما من تربوا هكذا وتجسد فيهم الإسلام فهم من فهموا الإسلام وحمله وحمل دعوته للعالم وانطلقوا به يطوفون الآفاق شرقا وغربا، حتى رأينا ربعي بن عامر يدخل على رستم دخول الواثق الذي يعي حجم الأمانة التي يحملها وعظم الدعوة التي يدعو إليها وقوة العقيدة التي أمن بها، فكانت كلمات الواثق وهو يرد على رستم بعد أن قال له: نعطيكم ما يكفيكم ثلاث سنين، فأجاب: "ما لهذا خلقنا، إنما ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عباده من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"، وهذا عقبة بن نافع يخوض المحيط بقوائم فرسه ويقول: "اللهم إنك تعلم أني قد بلغت المجهود، ولو أني أعلم أن خلف هذا البحر بلاداً لخضته، أقاتل في سبيلك، حتى لا يبقى على وجه الأرض من يكفر بك". نعم لقد كانت دعوة الإسلام وبلاغه للناس وتطبيقه عليهم هي القضية المصيرية لدى كل هؤلاء؛ من تربوا منهم في دار الأرقم ومن تربوا على يدهم فيما بعد، فمن تم بناؤهم في دار الأرقم هم من قامت على أكتافهم الأمة وحملت على أيديهم الدعوة حتى بلغت الآفاق.

وإن الواقع الذي نعيشه اليوم يقتضي السير وفق طريقة النبي ﷺ ببناء كتلة تحمل هم هذا الدين ودعوته وتستجيب لقوله تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ وقد كفى الأمة حزبُ التحرير هذا الواجب، فقام كحزب يعمل في الأمة لإقامة الخلافة داعيا لاستئناف المسلمين حياتهم الإسلامية من خلالها من جديد، وعلى الكتلة أن تتفاعل مع المجتمع لتصحيح طريقة تفكيرهم التي أتلفها الغرب بالنظرة الواقعية التي غرسها فيهم والزاوية الرأسمالية التي جعل منها وجهة نظرهم والنفعية التي جعلها مقياس أعمالهم، وما إلى ذلك من أعمال تهدم أفكار الغرب التي دخلت على أفكار الإسلام وتغير أفكارهم أو تعيدهم للتفكير على أساس الإسلام وعقيدته ومقاييسه الشرعية، ولتصبح مفاهيمه هي التي تسير سلوكهم في هذه الحياة، تزامنا مع هذا يجب أن تستنصر الكتلة أهل القوة من أبناء المسلمين المخلصين في الجيوش بتحميلهم أمانة الإسلام ووجوب تطبيقه على الناس وحمله للعالم حتى يلبي النداء من يهيئهم الله أنصارا كأنصار الأمس ينصرون هذه الدعوة دون قيد أو شرط، ويحيطونها من جميع جوانبها، فتقام بهم الدولة التي تعيد لهذه الأمة عزها ومجدها ووعد ربها سبحانه وبشرى نبيها ﷺ بدولة تطبق الإسلام من جديد؛ خلافة راشدة على منهاج النبوة.

إن الواقع لا يغير الحكم الشرعي بل يجب أن يتغير ليوافق الحكم الشرعي، ولا يجوز أن نخضع للواقع وإملاءاته كما لم يفعل رسول الله ﷺ، ولذا فليس أمام الأمة سبيل إلا العمل الجاد والمنتج من أجل تطبيق الإسلام من جديد تطبيقا شاملا كاملا في دولته الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، وهذا وحده هو العمل الذي تبرأ به الذمم أمام الله عز وجل ويرضيه عنا، وبه وحده ينصلح حال البلاد والعباد وتنتهي عقود من هيمنة الغرب على بلادنا ونهبه لثرواتنا ومقدراتنا، وإننا في حزب التحرير إذ ندعو الأمة لهذا فإننا ندعوهم لخيري الدنيا والآخرة، ندعوهم لأمانة الإسلام ودولته؛ ميراث رسول الله ﷺ التي أقامها لنا واستخلفنا فيها وحمّلنا أمانة حفظها وحمايتها وحراستها وبقائها قوّامة على دين الناس ودنياهم.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾

كتبه للمكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

سعيد فضل

عضو المكتب الإعلامي لحزب التحرير في ولاية مصر